المحاضرة الرابعة

- خصائص الأخلاق الإسلامية :

الخصائص جمع خاصة، وهي : الصفة التي توجد في الشيء ولا توجد في غيره وخصائص الأخلاق في الإسلام تختص بما عن غيرها في القوانين الوضعية والأديان السابقة التي طالتها يد التحريف. ثم إن الأخلاق الإسلامية تمتاز بجملة من الخصائص العظيمة التي تعكس روح الإسلام وجماله،

- وإليك بيان جملة من هذه الخصائص :

أولاً: أما ربانية المصدر : إن الأخلاق الإسلامية ليست رأياً بشرياً، ولا نظاماً وضعياً، إنما هي مستمدة من شرع رب العالمين.

- واستمداها من الشريعة الإسلامية يكون بعدة طرق :

أ . من الأخلاق ما أثبتته الشرع ابتداءً ب . ومنها ما أقره مما قد تعارف عليه الناس.

حتى ما لم ينص عليه الشرع من محاسن الأخلاق، فربانيتها في اندراجها تحت أصل شرعي عام : (ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن).

وتمتاز الأخلاق في الإسلام بخاصية الربانية من وجهين:

أحدهما : ربانية في مصدرها ، أي أنها من الله تعالى هو الذي أمر بها وحث عليها و رغب فيها ، ونهى عما يخالفها وحذر منه إما في القرآن الكريم أو في سنة النبي صلى الله عليه وسلم. **وهذه الخاصية** تمنح الأخلاق ثقة وقبولاً، وتجعلها في موضع الرضا والتسليم ، خلوها من التناقض والاختلاف والغموض. وما دامت ربانية المصدر فهي بذلك تخاطب العقل والمنطق، وهي كذلك ملائمة للفطرة السليمة.

ثانيهما: ربانية الغاية والمقصد: مهما تخلق إنسان بالأخلاق الإسلامية، فإنها ستبقى صورة بلا روح، طالما لم يُرد بها صاحبها وجه الله ورضاه، فليس الغرض من الأخلاق الإسلامية وجود صورتها الخارجية، وإنما تهدف إلى أن تملك على المسلم قلبه، فيدفعه إليها إيمانه، ويزيده الالتزام بما إيماناً.

وبين ربانية الغاية والمقصد قوله تعالى: ((ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً)).

وهم في حال يجوب فيها المال والطعام ، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم {مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} . ويقصدون بابتنائهم وإطعامهم وجه الله تعالى ، ويقولون بلسان الحال : ((إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً)).

أي: لا جزاء مالياً ولا ثناء قولياً.

- **ثانياً: أما أخلاق شاملة :**

معنى شمولية الأخلاق في الإسلام: أنها ما تركت خلقاً فاضلاً إلا ودعت إليه ، و لا خلقاً مذموماً إلا ونهت عنه، مستوعبة في ذلك الزمان والمكان. **فلا يقال:** إنما تصلح لزمان ولا تصلح لآخر، ولا أنها تصلح لبيئة دون أخرى. إن الأخلاق الإسلامية تتنوع فتشمل أخلاق الإنسان الخاصة مع نفسه أو المتعلقة بغيره، سواء كان فرداً أو جماعة أو دولة، وسواء كان مسلماً أو كافراً، وسواء كان ذلك في المجال الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي

- و نوضح ذلك ببعض الأمثلة :

1 - من الأخلاق ما يتعلق بالأسرة :

أ. في العلاقة بين الزوجين أمر أن تكون بالمعروف والرفق والإحسان، قال تعالى: ((وعاشروهن بالمعروف)).

ب. في العلاقة مع الأولاد يأمر الإسلام بالعدل بينهم في المعاملة والعطية، يقول صلى الله عليه وسلم: ((اتقوا الله واعدوا بين أولادكم)).

ج. في العلاقة بين الأرحام أمر بصلة الرحم، قال تعالى: ((فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم)).

و عن أبي بكر رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم ». »

2. من الأخلاق ما يتعلق بالمجتمع :

أ. حث على أخلاق وآداب زيارة الناس، قال تعالى: ((لا تدخلوا بيوتاً حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها)).

أرشد الله عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان، فإن في ذلك عدة مفاصد :

منها ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث قال " إنما جعل الاستئذان من أجل البصر " فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمزلة الثوب في ستر عورة جسده. ومنها: أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر سرقاً أو غيرها، لأن الدخول خفية، يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم **حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا أَي: يستأذِنُوا**. سمي الاستئذان استئناساً، لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة.

ب. في مجال الاقتصاد والمعاملات أمر بالقسط والعدل، ومنع من الحيلة والعدوان وأكل أموال الناس بالباطل قال تعالى: ((ويل للمطففين | الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون | وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون)).

وما ذكر في الآية من الكيل والوزن هو مثال، فيقاس عليه كل ما شبهه، فكل من طلب حقه كاملاً ممن هو عليه ومنع الحق الذي عليه فإنه داخل في الآية الكريمة، كمن يطلب حقه من أولاده ومنعهم حقوقهم ومن يطلب حقه من زوجته ومنعها حقوقها.

ج. في مجال السياسة والحكم يأمر بالعدل والأمانة، قال تعالى: { **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا** } .

3. خلُق مع غير المسلم، وذلك بأن يتحلى المسلم مع غير المسلم بالعدل والإحسان وحُسن القول والمعاملة.

من ذلك قوله تعالى: ((لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المُقسطين)).

وقول النبي : ((ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيبِ نفسٍ فأنا حَجِيجُهُ يومَ الْقِيَامَةِ)).

والمعاهد هو الذي يعيش في كنف المجتمع المسلم مسلماً.

– ثالثاً : أمها أخلاق مثالية واقعية :

معنى كونها واقعية : أي أمها عملية وقابلة للتطبيق، ولا يستعصي على أحد الإتيان بها والاستمرار عليها.

ومعنى كونها مثالية : أمها تستجيب لتطلعات مَنْ نفسه أبية تتوق إلى معالي الأمور، وتسعى للتخلي بالفضائل والقيم، ولا يرضى أن يكون كعامة الناس، ففسح الشارع له في ذلك.

إن الأخلاق الإسلامية تدعو الناس إلى السمو، وتراعي نفسية البشر واحتياجاتهم وقدراتهم على الارتقاء، كما تراعي حقهم في ألا يُعتدى عليهم، وفي أن يُقتص لهم، فلا تطالبهم بما فوق طاقتهم، عملاً بقوله تعالى: ((فاتقوا الله ما استطعتم)).

من أمثلة الواقعية المثالية:

أ. أن الجائع لا يعد خائناً للأمانة إن سرق لياكل.

ب. ولا يعتبر الخائف أو المكره ناقصاً للصدق إن كذب لينجو – حين لا ينجيه من البطش إلا الكذب – .

ج. كما أن الشريعة الإسلامية أعطت المسلم حق الدفاع عن نفسه ورد الظلم عنه وعن ماله وعرضه، وأن يدفع السيئة بمثلها، ثم تركت مساحة لمن يقوى على تحمل الظلم، محتسباً أجره على الله فقال تعالى: ((و جزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على الله)).

قال الشوكاني (رحمه الله) : " ذكر (سيحانه) المغفرة عند الغضب في معرض المدح فقال: «وإذا ما غضبوا هم يغفرون» كما ذكر الانتصار على الباغي في معرض المدح (أيضاً) لأن التذلل لمن بغى، ليس من صفات من جعل الله له العزة، حيث قال (سيحانه) وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ. فالانتصار عند

البغي فضيلة، كما أن العفو عند الغضب فضيلة .

رابعاً: **أما أخلاق وسط:**

تأتي الوسطية بمعنى: العدل والخيرية والتوسط بين الإفراط والتفريط.

ومن ذلك قوله عز وجل : ((**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً**)) .

وهذه الخاصية أكبر من أن يقدر على تحقيقها العقل البشري ، ولهذا لا يخلو منهج أو نظام يصنعه البشر من الإفراط أو التفريط بحسب طبيعة كل إنسان، ولذلك فإن القادر على إعطاء كل شيء في الوجود حقه هو الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً.

ومن شواهد وسطية الأخلاق ما يأتي :

1. حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ((ما خيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله بها)).

ففي الحديث تقص علينا عائشة (رضي الله عنها) عظيم خلق الرسول صلى الله عليه وسلم، وتذكر خلقين من أخلاقه العالية، هما اختيار الأسهل الأيسر ما لم يكن محرماً، وعدم الانتقام لنفسه ما لم تغش محارم الله، فينتقم الله.

2. أن الشريعة الإسلامية أقرت التفاوت الفطري والعملي بين الناس، فليس كل الناس في درجة واحدة من حيث قوة الإيمان، والالتزام بما أمر الله به من أوامر، والانتهاز عما نهى عنه . فهناك مرتبة الإسلام، ومرتبة الإيمان، ومرتبة الإحسان وهي أعلاهن، كما أشار إلى ذلك حديث جبريل المشهور، ولكل مرتبة أهلها. وهناك الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، كما أرشد إلى ذلك القرآن الكريم، وإلى هؤلاء يشير قوله تعالى في سورة فاطر: ((**ثم أوردنا الكتاب الدين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات يا ذا الجلال والإكرام)). فالآية الكريمة تجعل هؤلاء الأصناف الثلاثة (**على تفاوت مراتبهم**) من الأمة التي اصطفاه الله من عباده، وأورثها الكتاب.**

3. ومن وسطية الأخلاق في القرآن أنها لم تتصور في أهل التقوى أن يكونوا سالمين من كل عيب، بعيدين عن كل ذنب، كأنهم هم ملائكة أطهار، بل قدرت حقيقة الإنسان وطبيعته البشرية، المركبة من الروح والطين، فإذا كانت الروح تعلو به مرة، فإن الطين يهبط به تارة، وفضل المتقين على غيرهم إنما في التوبة والرجوع إلى الله عند ارتكاب الذنوب. قال تعالى: ((**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ خِزْيٍ أَبَدِ الْعَالَمِينَ)).**

وبين القرآن الكريم مهمة الأخلاق الخطيرة مع الإنسان منذ النشأة الأولى، حين ذكر توبة أبينا آدم، وأنه ثاب إلى خلق رضي من أخلاق الإيمان وهو الاعتذار عن الخطأ، والاعتراف به، والافتقار إلى مولاه فقال هو وزوجه: ((**قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**)) و يقارن القرآن الكريم هذا الخلق بخلق مضاد له وهو الاستكبار والإباء عن أمر الله – عز وجل – الذي أهلك إبليس، وطرده من رحمة الله عن سعتها.

5. قوله تعالى: ((**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا)).** في الآية هي الله الإنسان بأن يمسك إمساكاً يصير به مضيقاً على نفسه وعلى أهله، ولا يوسع في الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه بحيث يكون به مسرفاً، فهو نهي عن جانبي الإفراط والتفريط. ويتحصل من ذلك مشروعية التوسط، وهو العدل الذي ندب الله إليه.

6. قوله تعالى: ((**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)).** أي لا تترك حظك من لذات الدنيا التي أباحها الله من المآكل والمشارب والملابس والمسكن والزواج، فإن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه. وهذه هي وسطية الإسلام في الحياة.

ومن المناسب هنا أن أذكر أن التوسط في الأخلاق، لا يعني البينية مطلقاً، أي: الوسط بين خلقين دائماً، فلا وسطية بين الصدق والكذب مثلاً.